كيف يمكن تبرير سلطة العلم؟

جون بريكمون
ترجمة: محمد أبركان

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2017
All rights reserved © 2017

كيف يمكن تبرير سلطة العلم؟[1]

جون بريكمون Jean Bricmont

ترجمة: **محمد أبركان**

1- Jean, Bricmont, "Comment justifier L'autorité scientifique", in, Science et Pseudo- Sciences, n° 318, Octobre-Décembre, 2016, P. 52- 62.

تقديم

المقال الذي نترجمه هنا هو لصاحبه جون بريكمون، وهو فيزيائي وباحث وهو رئيس سابق للجمعية الفرنسية من أجل المعلومة في العلم l'AFIS كما أنه عضو هيئة مجلة Science et pseudo-science. ومقاله هذا هو في الأصل عرض ألقاه بمناسبة ندوة نظمت بالكوليج دو فرانس Collège de France يوم 19 أكتوبر 2007؛ وقد نشرته مؤخرا مجلة Science et pseudo-science، (انظر الهامش رقم 1 أسفله).

يحاول جون بريكمون، في هذا المقال، تسليطَ الضوء على قضية شغلت بال فلاسفة ومؤرخي العلم طيلة القرن المنصرم؛ يتعلق الأمر بقضية سلطة العلم؛ وبهذا الصدد يثير أسئلة مرتبطة بهذه القضية، من قبيل: من أين يستمد العلم سلطته؟ وهل يمكن تبرير هذه السلطة من داخل العلم ذاته؛ أي انطلاقا من منطق العلم ومن كيفية استدلال العلماء على قضاياهم؟ لكن، ألا يمكن تبرير هذه السلطة انطلاقا من ربط العلم ونتائجه بالملابسات والمقامات التي تحيط بعملية إنتاجه؛ الشيء الذي يعني ربطه بالمؤسسات التي تطلب ذلك الإنتاج، وتعمل على الترويج لنتائج العلم إذا كانت تخدم مصالحها؟ وهذا يطرح سؤال حيادية العلم. هذا إضافة إلى سؤال مرتبط بكيف يمكن للعلماء الرد على الذين يشكون في العلم ويسحبون ثقتهم من نتائجه؟. والجدير بالذكر أن بعض هذه الأسئلة لم ينتبه إليها أصحاب التصورات الإبستمولوجية الكلاسيكية كما ينعتها صاحب هذا المقال. والمقصود أساسا هو تلك التصورات التي سادت وهيمنت خلال النصف الأول من القرن العشرين، بل امتدت ليستمر تأثيرها حتى ستينيات هذا القرن، إنها التصورات الوضعانية والعقلانية التي كانت تنظر إلى العلم من زاوية منطقه ونتائجه، ولم تكن تهتم لا بالملابسات والمقامات التي يمكن أن تحيط ببناء النظريات العلمية، ولا بالجماعة العلمية وبقضية تلقي العلم من طرف المختصين أو المهتمين أو الجمهور. أما التصور الآخر، والذي يقول عنه صاحب المقال إنه تصور ما بعد وضعاني Post-positiviste، فهو يربط العلم بمظاهر قد لا تكون عقلانية؛ أي لا علاقة لها بمنطق العلم وبطرق تدليل العلماء. ومن هذه الجهة، يضعنا صاحب هذا المقال أمام عدة مشاكل أو أسئلة من شأنها أن تواجه المشتغلين بفلسفة العلم، كسؤال السياق، وسؤال لامبالاة العلماء تجاه نقاشات فلاسفة العلم، وسؤال إيمان العجائز...إلخ.

نص الترجمة:

يشتكي الكثير من العلماء من كون الرأي العام، وكذا الكثير من السياسيين لا يثقون فيهم بشأن مواضيع من قبيل المواد المعدلة جينيا والنووي وتطور الأنواع أو ارتفاع حرارة الأرض.

إن هدف هذا النص ليس هو تعيين إلى أي حد تبقى هذه الشكوى مبررة أم لا، وإنما الهدف منه هو مناقشة في أي نطاق يكون من باب العقل قبول النظريات العلمية، ورفض تلك التي ليست علمية (على سبيل المثال الأديان وأشباه العلوم).

العلم والعقلية والشكانية

يجب أولا إبداء هذه الملاحظة، وتكمن في أن النظريات العلمية، سواء كانت صحيحة أو قريبة من الصحة؛ فليس من باب العقل أن تُقبل ضرورة. فالحقيقة ترتبط بالعالم كما هو، والعقلية ترتبط بالمعلومة التي نتوفر عليها. فقد يكون أمرا عقليا بالنسبة إلى أحد ما يعيش في غابة كثيفة ولم يخرج منها يوما، أن يفكر أن الأرض مسطحة ومستوية؛ ويمكن أن نعدد أمثلة من هذا القبيل إلى ما لا نهاية.

أكثر من هذا؛ فالسؤال عما إذا كان من باب العقل بالنسبة إلى الذين ليسوا علماء، بالنظر إلى المعلومة التي يملكونها، أن يقبلوا النظريات العلمية، ويرفضوا تلك التي ليست كذلك، لا يُختزل إلى سؤال خاص بعقلية الباحثين الذين يخترعون أو يعملون على تجويد هذه النظريات، فقط لأن هؤلاء يملكون معلومة لا يملكها جمهور كثير.

فضلا عن ذلك، يمكن لنا أن نتساءل ما إذا كان من الأساسي أن يكون اقتناع هذا الجمهور بالخطاب العلمي عقلانيا. إننا نسمع أحيانا من يقول إن العلم «هو دين جديد» والعلماء يحتجون في وجه هذا القول، مشددين، عن صواب، على أن النظريات العلمية قائمة على أسس تختلف بشكل جذري عن الأديان؛ فالعلم مثلا قائم على تجربة وليس على تأويل النصوص المفترض أنها مقدسة. ولكن عبارة «الدين الجديد» يمكن أن تنطبق بشكل جيد على الكيفية التي يقتنع بها الجمهور غير العلمي بالنظريات العلمية. فيمكن أن ننخرط فيها بإيمان العجائز، أو «الإيمان الساذج».

المشكل هو أن الثقة التي يتمتع بها العلم بين الجمهور يصعب أن تستند، ولمدة طويلة في كل الأحوال، على إيمان العجائز. والواقع أن التأثير الثقافي للعلم على المجتمع هو أن يضع، بالأساس، مختلف أشكال الإيمان موضع سؤال. فالموقف العلمي يقتضي أن تكون مزاعمنا مبررة بواسطة ترتيب الاستدلالات

المنطقية والملاحظات المتعلقة بالوقائع. أما الخطابات التي تبرر التقاليد والأديان، فإنها تقوم تقريبا على مزاعم ليست من هذا النوع ولا تصمد أمام الفحص المستلهم من روح المسعى العلمي. فأن نتحدث عن السلطة العلمية هو، بمعنى ما، ضرب من الأضداد oxymore؛ وذلك لأن أساس الموقف العلمي، مقارنة مع حجة السلطة، يقوم بالضبط على شكانية جذرية Scepticisme radical.

طيلة القرنين السابع عشر والثامن عشر، لعبت الشكانية العلمية في أوروبا وبعد ذلك في كل العالم تقريبا، دور الحمض الذي أذاب Un rôle d'acide dissolvant شيئا فشيئا المعتقدات اللاعقلانية التي كانت تشرعن السلط التي كان يفترض أنها طبيعية، سواء ما تعلق منها بالكهنوت أو بالملكية أو بالأرستقراطية، أو بالطبقات التي تزعم أنها سامية. ومن ثم، فإنه إذا كان صحيحا أن العلم من وجهة نظر عقلية صرفة لا نتائج أخلاقية له، (وذلك بسبب استحالة المرور مباشرة من أحكام خاصة بالوقائع إلى أحكام القيمة) فإنه قد كان له، ولا يزال، تأثير كبير على المذاهب الأخلاقية والسياسية التي تستند إلى معتقدات لاعقلانية.

من وجهة النظر هذه، فدور العلم كان تقدميا للغاية؛ بل نستطيع القول إن الأفكار التقدمية في السياسة ليست شيئا آخر سوى التطبيق الفعلي للشكانية العلمية في المذاهب التي تبرر، في لحظة تاريخية ما، النظام الاجتماعي الموجود[1].

إن المفارقة التي تقودنا إلى هذا المشكل الذي يشغلنا تكمن في أن الشكانية المعاصرة تجاه الجماعة العلمية[2] La communauté scientifique (غالبا ما يُنظر إليها على أنها طبقة تحظى بامتياز) وتجاه نظرياتها، هي في جزء منها ثمرة للثورة الثقافية المضادة للسلطة، وهي الثورة التي حرَّض عليها العلم الحديث. إن العلماء يجدون أنفسهم، شيئا ما، في وضعية السقّاء المسقي l'arroseur arrosé: كيف يمكن لهم الرد على الشكانية التي شجعوها هم أنفسهم ضد الدين مثلا، عندما ستنقلب هذه الشكانية ضدهم؟

هل بإمكان الإبستمولوجيا أن تنقذنا؟

تقوم المحاولة الأولى للإجابة في العودة نحو الخطابات حول العلم، وهي خطابات الفلاسفة والسوسيولوجيين أو خطابات مؤرخي العلوم. إن هذه الخطابات هي في الغالب سهلة المنال مقارنة مع خطابات العلماء، هذا حتى وإن كانت صراحة تبقى محفوظة لجمهور محدود نسبيا. وبمعنى ما، فإن هذا ما حاول العديد من فلاسفة

1- الشيء الذي لا يعني أن العلماء يطبقون شكانيتهم العفوية على هذه المذاهب؛ فباعتبارهم أفرادا لهم نسبيا حظوة في المجتمع الذي يعيشون فيه، فإنه من الوارد أن يرزحوا تحت أوهام تبريراتهم الذاتية التي تقود إليها بشكل طبيعي السلطة والامتيازات في كل مجتمع.

2- إنني سأستعمل عبارة «الجماعة العلمية La communauté scientifique» عدة مرات في هذا النص. ولكن سوف أتناوله بمعنى واسع، ولا أريد بتاتا أن أقترح بأنه لا توجد تناقضات عميقة بين هذه الجماعة. ولكن، وكما سنرى لاحقا، فالفهم الذي لدى الجمهور حول هذه الجماعة، التي ينظر إليها عن خطا أو عن صواب بأنها متجانسة، يلعب دورا كبيرا في الرأي الذي يكونه هذا الجمهور حول العلوم.

العلم القيام به طيلة النصف الأول من القرن العشرين، والذين يمكن أن نسميهم بمناصري العلماء أو يمكن تسميتهم كذلك بالكلاسيكيين (ككارل بوبر وكالوضعانيين، مثل كارناب ورايشنباخ على سبيل المثال). ولكن الفترة الحالية يهيمن عليها خطاب المفكرين «ما بعد الوضعانية» كما نسميهم أحيانا (كتوماس كون وبول فايرباند على سبيل المثال)، ويلح هؤلاء على المظاهر اللاعقلانية للعمل العلمي.

يمكن، إذن، أن نعتبر جهود تبرير الخطاب العلمي «من الخارج» من طرف الفلاسفة أو المؤرخين، بأنها جهود قد فشلت. وعلى العكس، فالخطاب الذي يهيمن كثيرا اليوم يميل إلى إنتاج آثار تنزع الشرعية عن العمل العلمي. إن هدف الإبستمولوجيين الكلاسيكيين كان يتمثل في وصف «منطق العلم» ووصف كيفية تعقل العلماء. لقد حاولوا أن يبينوا أن ما يميز العمل العلمي هو كونه عملا عقلانيا. ولكن إذا أكدنا، وهذا ما يبدو لي أنه من باب العقل فعله، على أن العقلية العلمية La rationalité scientifique ليست مختلفة عن عقلية الحياة اليومية، وإنها فقط تهذيب وتوسيع لهذه الأخيرة[3]، فإننا نفهم بسهولة لماذا تصطدم محاولة الإبستمولوجين ضرورة بصعوبات كبيرة.

علينا، في الواقع، أن نفكر أولا في عقلية الحياة اليومية؛ فكل خطاباتنا حول العالم لها بالضرورة مظهر استقرائي؛ وتبرير هذا المظهر أمر معقد. لماذا يكون من باب العقل التفكير في أن الشمس ستشرق غدا، وأن الغربان سود والإوز بيض، أو أن أسرع طريقة للذهاب عبر القطار من باريز نحو بروكسيل تقتضي الانطلاق من محطة الشمال بدل أية محطة أخرى؟. بالتأكيد، إنني لا أريد القول إن الإثباتات أعلاه ليست حقيقية أو أنه ليس من باب العقل قبولها؛ أريد فقط أن أشدد على أنه من الصعوبة بمكان أن نحدد بشكل مجرد ما يجعلها تتصف بالعقلانية. وإذا كان من الصعب تحديد عقلانية الأفكار البسيطة والبديهية كالتي ذكرناها هنا، وكانت في الكثير من الأحيان بعيدة جدا عن أقل دقائق في الخطاب العلمي، فهل من أمل لتحديد عقلية لهذا الخطاب؟

يكمن المشكل في أن العقلية ترتبط بالسياق، وذلك بكيفية غاية في التعقيد؛ وهذا الارتباط هو ما لا نستطيع وصفه بدقة. وهذه الصعوبة هي التي تسمح للكثيرين بالاعتراض على وجود تمييز بين العقلي واللاعقلي. الحيلة، إذا أمكن القول، هي نفسها دائما: نطلب من العقلانيين أن ينشئوا قواعد العقلية (قواعد أخرى غير قوانين المنطق) ذات صلاحية كلية، وهذا ما لا يمكننا فعله. فليس في استطاعتنا سوى إعطاء أمثلة، وذلك في ظروف معطاة تُقدم فيها بعض الأحكام كالقول مثلا إن الشمس ستشرق غدا، حيث تظهر أنها عقلانية أكثر من الأخرى.

3- وكما تقول بكيفية واضحة سوزان هاك Haack Susan ([1]، ص، 137)، «[...] ليس هناك من سبب للاعتقاد بأن [العلم] يحوز منهجا في البحث خاص، والذي لا يتوفر عليه المؤرخون أو المخبرون، أو عموم الناس». ورد عند Haack Susan [2].

بهذا المعنى، فالنقاش حول العقلية مواز للنقاش حول «قضايا» كالحقيقة (من حيث أنها مطابقة للواقع) أو قضية وجود العالم الخارجي بالنسبة إلى وعيي. وفي كل الأحوال، فلا يمكن الرد على الشكاني إلا بواسطة أمثلة.

فضلا عن ذلك، لنلاحظ أن العلماء لا ينشغلون أبدا، في أبحاثهم العلمية البحتة، بتبيان أنهم يمارسون العلم، أو بشرح كون خطوتهم هي بحق خطوة علمية على عكس خطوة المنجمين أو خطوة فرويد أو ماركس إلخ. فهذه الأسئلة هي أساسا من طبيعة إبستمولوجية؛ والعلماء يميلون أحيانا إلى تقديم أجوبة عنها، ولكن ذلك يتم خارج عملهم العلمي الخاص. ففي هذا العمل الخاص، هم يقدمون حججا، وهي في الغالب حجج صالحة، بيد أن هذه الصلاحية ترتبط بالسياق وتظهر واضحة للذي يفهمه، ولكن يستحيل تحديدها دون فهم حقيقة هذه الحجج والسياق الذي تندرج فيه.

ولعل هذا هو ما يفسر اللامبالاة النسبية للعلماء إزاء النقاشات الإبستمولوجية. فإذا أردنا استحضار مزحة لريشار فاينمان R. Feynman نقول إن العلماء يتفاعلون مع النقاشات التي تجري بين الإبستمولوجيين تقريبا كما تتفاعل الطيور مع ما يقوله علماء الطيور؛ إنهم يستمرون في التعاطي للعلم كما تستمر الطيور في التحليق.

ومع ذلك، فالانتقادات الإبستمولوجية الكلاسيكية ساهمت في التغيير الجذري الذي حصل منذ سنوات الستينيات في الخطابات «التثقيفية» حول العلم، والتي كانت لها بالتأكيد نتائج همت نزع الثقة عن العلوم؛ وهذا هو التطور الذي يجب أن يقلق العلماء.

هل يجب العودة إلى إيمان العجائز؟

طبعا، يمكننا أن نجيب بأنه، لتقدير عقلية العلماء يكفي قراءة أعمالهم؛ ولكن العلماء أنفسهم يعلمون جيدا أن فردا ما ليس باستطاعته أبدا سوى فهم جزء يسير من هذه الأعمال. فما العمل بالنسبة إلى بقية الأعمال؟ هل يجب العودة إلى إيمان العجائز؟

ليس بالضرورة فعل هذا؛ فمن أجل إبراز اختلاف العقلية بين العلم واللاعلم، يمكن لنا أن نستثمر تعميما لحجة كلاسيكية تعود إلى الفيلسوف دافيد هيوم، والذي يبين لماذا ليس من العقل الإيمان بالمعجزات.

لقد سبق أن أشرنا (انظر هامش رقم 3) إلى كيف يمتد الاستدلال الهيوماني (نسبة إلى دافيد هيوم) إلى أضرب أخرى من القضايا، كأن نقول مثلا: «المادة مركبة من الذرات»، «بعض المواد تحتفظ بأثر علاجي ولو بعد أن يتم تخفيفها بشكل واضح» أو أن نقول: «الله محبة».

فيما يتعلق بالفيزياء وبالعلوم الطبيعية، يكون بحوزتنا ضربان من الحجج للرد على الشكاني: من جهة يمكن القول، إن التكنولوجيا هي في الواقع «معجزة» (وذلك بغض النظر عن أحكام القيمة التي يمكن أن تكون لدينا حول حسناتها أو سيئاتها)؛ لقد اعتدنا عليها، حيث لا نفكر فيها وفق هذه التعابير، ولكن إذا ما أمكن لنا السفر في الزمن وأمكن لنا أن نقود سيارات وطائرات نحو القرن الثامن عشر، فإن هذه الأمور ستعد، بالتأكيد (على الأقل في الوهلة الأولى) كمعجزات. لكن، بخلاف المعجزات التي يحيل إليها الكتاب المقدس مثلا، فالمعجزات التكنولوجية تقبل أن يُعاد إنتاجها ويراها الجميع، وبالتالي فهي تمثل ردا على الشكاني. ولكن توجد معجزة «ثانية»، أعني التطابق بين عدة ملاحظات وتجارب، وبين التنبؤات المستنبطة من النظريات العلمية. مرة ثانية، هناك شيء هو في الواقع من قبيل المعجزة، وذلك أنه في عالم حيث المستقبل غير متوقع بالمرة، نستطيع أن نتنبأ بدقة أكبر بموضع توقف العقرب على الساعة في نهاية التجربة. وبالتأكيد فإن هذا النوع من الحجج يترك المجال مفتوحا على عدة أسئلة، ولكنه (أي هذا النوع من الحجج) يبين، مبدئيا، كيف يمكن الرد على الشكاني، وتبيان أن الخطاب العلمي ليس لا وهما خالصا ولا محض خدعة.

الخلاصات التي يمكن استخلاصها من تعميم حجة هيوم هي خلاصات جد متواضعة مقارنة مع التي حاول الإبستمولوجيون الكلاسيكيون إنشاءها. وفي الواقع، فإننا لا نمنح هنا ميزة لعقلية المشروع العلمي، إنما نحن نبين أنه ليس وهما خالصا، وذلك بعكس الكثير من الخطابات الأخرى. وهذه الحجة تسمح برؤية الفرق الشاسع الموجود بين العلم واللاعلم، ولكنها (أي هذه الحجة) لا تسمح بأن نصف هذا الفرق بدقة[4].

الجواب الذي لخصناه أعلاه، هو حقيقة وفي خطوطه العريضة، يُحتمل أن يكون هو الرد المقدم من طرف العلماء على معارضيهم الشكانيين. إن قرنا من النقاشات الإبستمولوجية قادنا إلى خلاصة، هي مع الأسف، خلاصة عادية نسبيا؛ فالنجاحات المذهلة للعلوم تبين أننا نتعاطى لنشاط عقلاني بامتياز، ولكن لا نستطيع «أن نمسك» بهذه العقلانية من الخارج دون الدخول في منطق الخطاب العلمي ذاته.

حدود حجة هيوم بصدد المعجزات

للأسف، فحجة هيوم وتعميمها (التكنولوجيا، والتجارب التي تقام في المختبر) لا تسمح بالرد بشكل تام على الشكاني. فالجمهور لا يقترب سوى من التكنولوجيا؛ ووحدها آثار هذه الأخيرة هي التي تبدو للكل. أكثر من هذا؛ فبعض المواضيع التي تقوم عليها المعارضة الإيديولوجية للعلوم هي أحيانا مواضيع بمنأى عن التطبيق التكنولوجي؛ فمثلا نظرية التطور، ليس لها، من حيث هي كذلك، تطبيقات تكنولوجية ظاهرة

4- أدخل ألان سوكان Alan Sokal فكرة أنه توجد اتصالية بين العلوم وبين أشباه العلوم أكثر مما يوجد خط للتمييز كما أراد ذلك الإبستمولوجيون الكلاسيكيون، وذلك بوضع نظريات أكثر بنائية كنظرية الذرة في طرف، وفي الطرف الآخر نجد التنجيم والمسيحية إلخ. وبين هذين الطرفين، نجد النظريات الأقل بنائية أو ذات الطابع النظري كنظرية الحبال La théorie des cordes أو نظرية الانصهار البارد ([4]، ص 45).

(وكذلك نظرية الانفجار الأعظم). إننا نستطيع جيدا أن نتخيل أن العالم كان قد خُلق منذ عدد السنين من طرف آلهة ما، حيث يكون ما هو الآن؛ أي حيث تعمل كل الاستخدامات العلاجية والوراثية للبيولوجيا كما يجب. ونظرية التطور، من وجهة نظر معينة للأشياء، هي نظرية خاطئة، ولكن من المستحيل دحض رؤاها باستدعائنا فقط لنجاحات التكنولوجيا. إنه يجب استئناف دراسة الحفريات، وهي الدراسات التي يُقبل عليها أصحاب نظرية الخلق Les adeptes du créationnisme؛ فهؤلاء مثلا سيعتقدون أن العلماء لهم ميل علماني هو الذي يدفعهم لقبول نظرية التطور أكثر مما سيفعلون ذلك من باب العقل plus qu'il ne serait rationnel de le faire. فكيف يمكن لنا الرد؟

حالات من المناظرات الحديثة

مشكل آخر يطرح فيما يتعلق بالتكنولوجيات «الحديثة» كالنووي والتحول الجيني والنانوتكنولوجيات Les nanotechnologies أو الأمواج الكهروميغناطيسية، حيث إن ما يُعترض عليه ليس هي وظيفة التكنولوجيا أو تفسيرها العلمي، وإنما هي مزاعم العلماء حول الأخطار الكامنة. ومع ذلك، يوجد تماثل معنوي مع قضية نظرية الخلق. سيقول الشكانيون، من ذا الذي يقول لنا، في الواقع، إن أخطارا ستظهر تبعاتها في المستقبل لا يخفيها عنا (عن إرادة أو بدونها) العلماء في الخطابات التي يريدونها مطَمْئِنة؟ أليست أحكام هؤلاء العلماء منحرفة بارتباطاتها مع الحكومات أو مع الصناعة L'industrie؟ إن جوابنا، إذا تم بناء على استحضار النجاحات الحالية للتكنولوجيا، لن يسمح بتبديد هذه التخوفات، ما دامت هذه الأخيرة تتعلق تحديدا بالمستقبل. ومجددا، كيف يمكن لنا الرد (بالرغم من أن هذه التخوفات التي تتعلق بالتكنولوجيا هي، مرة أخرى مختلفة جدا بالنسبة إلى أصحاب نظرية الخلق)؟

قبل أن نحاول مناقشة هذه المشاكل، يجب استبعاد جواب يتردد بين العلماء، وعموما بين أولئك الذين يريدون الدفاع عن العلم، وهو الجواب الذي يقوم على رفض الانتقادات باتهامها بأنها ترتكب «الخطأ الوراثي»؛ أي الحكم على الآراء تبعا للوضع أو لمصادر دخل الذين يدلون بها وليس تبعا للخصائص (التجريبية أو المنطقية) لهذه الآراء. لفهم المشكل كما يُطرح لدى أغلب الناس، لنتخيل قاض يتقاضى راتبه بشكل مباشر من طرف أحد الأطراف ويصدر حكما لصالح هذا الطرف. لنفترض أن الحكم حُرر بلغة قانونية خاصة لا يمكن فهمها (من غير المتخصص)، فسيبدو حينئذ أنه من باب العقل الارتياب في الحكم، والتخلي عن هذا الارتياب، وسيكون من باب الخطأ التخلي عن هذا الارتياب، باعتباره «خطأ وراثيا». في الواقع يجب الأخذ بالاعتبار المعلومة التي نتوفر عليها (كون القاضي قد قبض الثمن، وكون نص الحكم لا يمكن فهمه). إن الشكانية الهيومانية (نسبة إلى هيوم: المترجم) التي تظل، في النهاية، شكانية بالمقارنة مع

مصداقية القدرات المعرفية الإنسانية، كانت ستقود بحق، في هذه الحالة، إلى أن تعتبر أنه من باب العقل الشك في هذا الحكم.

ولكن، لماذا يختلف الأمر فيما يتعلق بالعلوم؟ فالمقالات العلمية هي أكثر غموضا من النصوص القانونية (وهذا حتى بالنسبة إلى العلماء الذين لا يشتغلون بشكل مباشر في التخصص المعني). فإذن لماذا لا يمكن أن نحكم على أعمالهم، استنادا إلى أنهم يتقاضون أجورهم، كما هو الحال في الغالب من طرف أجهزة (مختبرات، صيدليات، حكومات، أو شركات متعددة الجنسية) التي لها مصلحة في أن تكون النتائج التي يُعلن عنها العلماء (بصدد أمن المواد المعدلة جينيا أو بصدد النووي أو بصدد تحليل الحفريات) هي تحديدا نتائج كما هي؟

إن هذا الموقف الشكاني يختلط أحيانا باعتبارات لاعقلية، ولكنها اعتبارات تظل بعيدة عن اللاعقلية كما قد يفترضها علماء كثر؛ وفي الواقع، إذا أُخذت كما هي، تكون جد عقلانية، وهي أيضا، في الواقع، من نفس نمط الشكانية الهيومانية (الحذر تجاه مزاعم لم يتم التحقق من وقائعها بشكل مباشر من طرف أناس آخرين). للرد على هذه الشكانية، يجب إعطاء أسباب منح الثقة في الجماعة العلمية، وهذا يتطلب حدا أدنى من التحليل السيكولوجي والسوسيولوجي لاشتغال هذه الجماعة. فإذا كنا نعتقد أن النقاش مفتوح بما فيه الكفاية داخل هذه الجماعة، رغم مصادر التمويل «المشبوهة» وبأن هناك ما يكفي من الأعضاء الأكفاء الذين يشتغلون ضمنها (الجماعة العلمية)، فإنه سيكون لنا أن نميل إلى وضع الثقة في هذه الجماعة فيما يتعلق بتعدد الآراء التي تنشرها حول المواضيع التي لا نملك بشأنها أية وسيلة للتحقق مباشرة مما يتم إثباته. وهذه الثقة، سوف تُبرر عقلانيا بمقدار ما تكون عليه مقدمات الاستدلال (حول الانفتاح والكفاءة).

لنأخذ مثال الارتقاء، إننا نستطيع أن نحاجج بهذه الكيفية: إن جماعة البيولوجيين La communauté des biologistes قد برهنت على فعاليتها بطرق عدة (إنها حجة التكنولوجيا). فالأعضاء الذين يدرسون نظرية الارتقاء (سواء الحفريات أو الآليات المرتبطة بالانتخاب الطبيعي) يمثلون عينة من هذه الجماعة، أو على الأقل، إنهم في اتصال مباشر بها. فإذن، إذا كان هؤلاء الباحثون يستسلمون لخداع قوي أو أنهم يقدمون الدليل الساطع على عدم كفاءتهم (إلى حد الانخداع في فعل الارتقاء نفسه)، فهذا سوف ينكشف وسوف يُدان من طرف بقية الجماعة، التي أظهرت كجماعة، الحجج المباشرة على فعاليتها. ونستطيع القيام باستدلالات مماثلة فيما يخص النووي والمواد المعدلة جينيا، وذلك على الأقل فيما يهم المخاوف المبالغ فيها التي يتم إبداؤها حول هذا الموضوع[5].

5- ليس بالشيء البسيط تحديد بدقة وزن هذه الحجج. ففي الواقع توجد جامعات توجد بها شعب علم اللاهوت أو شعب السوسيولوجيا قادرة على منح لقب دكتور لمنجم (Mme Teissier انظر [5]، ولا نستطيع القول، في هذه الحالات، إن الجماعة العلمية أو الأكاديمية تفرض، فيما يحصل في هذه الشعب، مراقبة غير مباشرة، والتي أعلنا عن وجودها أعلاه. يجب علينا تحليل، وذلك بتفصيل، ما يتم تقاسمه بين مختلف التخصصات من أجل تهذيب الحجة المقدمة هنا.

إن أغلبية العلماء تجد هذه الطريقة من الاستدلال أكثر إقناعا، ولكن ذلك بشكل جزئي على الأقل، لأنهم ذوو تجربة مباشرة بخصوص وظيفة الجماعة العلمية، إنه نوع من سوسيولوجيا حدسية Une espèce de sociologie intuitive للوسط، والذي يقودهم إلى التفكير بأن الأفكار الصحيحة تنتهي بشكل عام، وذلك آجلا أم عاجلا، إلى الانتصار عليه. ولكن ليس ضروريا أن يكون الأمر كذلك بالنسبة إلى غير العلماء. فما هي دوافعهم، وهم ينظرون للأمور من الخارج، لمنح أدنى الثقة المطلوبة للجماعة العلمية، وذلك من أجل أن يكون من باب العقل قبول ما تقوله هذه الجماعة؟

من باب العدل، نقول إنه من أجل أن تكون الجماعة العلمية ذات مصداقية، فليس المطلوب فقط هو أن تكون محايدة، وإنما أن تُظهر الحياد. فهل الجماعة العلمية تبدي مظاهر الحياد التي تسمح للجمهور بأن يضع ثقته بشكل عقلاني في العلم؟

الحياد ومظهر الحياد

لنشر، وباختصار إلى بعض العوامل التي يمكن أن تُعرض للخطر هذا المظهر من الحياد:

هناك أولا، مشكل أشكال الاحتيال والأخطاء، وهنا يمكن أن نضرب مثالا بنشر بينفنيست Benveniste لمقال حول «ذاكرة الماء» في الطبيعة أو نضرب مثالا بأطروحة الإخوة بوغدانوف [6]. فإذا أخذنا بعين الاعتبار كون الجماعة العلمية مؤلفة من أناس وليس من ملائكة، فهذه الأشكال من الاحتيال والأخطاء لا تتكرر، حيث إنها، بالرغم من كل شيء، غالبا ما يتم فضحها أو التبليغ عنها. ولكن الجمهور الكبير لا وسائل له لتقويم تواتر هذه الأشكال من الاحتيال والأخطاء، وهذا تنتج عنه بالتأكيد وبشكل قوي، نزع الشرعية عن العلم.

مشكل الفساد أو الانحلال (الممكن) للمؤسسة العلمية. فالفكرة هنا هي كون العلم قد يكون حقق أشياء خارقة في الماضي، ولكنه لم يعد يحققها في أيامنا هذه، وذلك إما بسبب جعل الثقافة تجارة، أو أزمة التعليم، أو الضرورة المتنامية من أجل الحصول على تمويلات، أو التحكم البيروقراطي في البحث، أو التأثير المتزايد لآثار الموضة (أو بسبب توليفة مما سبق).

سؤال مصادر التمويل؛ فالبحث يحتاج بالتأكيد إلى المال؛ وإذا كان هذا الأخير لا يأتي من القطاع العام، فإنه سوف يُبحث عنه في القطاع الخاص. ومن البديهي أن هذا المصدر الأخير (القطاع الخاص) لن يظهر كمصدر محايد (وهذا حتى وإن افترضنا أن البحث الممول على هذا النحو محايد). ومع الأسف، فالمصادر العمومية نفسها تظهر أقل حيادية، وذلك لأن الحكومات تعطي، وبشكل متزايد، الانطباع بأنها

مرتبطة بالمقاولات الكبرى وبالشركات المتعددة الجنسيات (أو على الأقل، لا تهتم كثيرا بأنها لا تعطي هذا الانطباع).

وأخيرا، هناك الارتباط بين العلوم والمجالات العسكرية. فمنذ حرب الفيتنام، وربما طيلة المدة الحالية «للحرب على الإرهاب» آلاف من العلماء قد اشتغلوا، ولا يزالون، بشكل مباشر لصالح الجيش والمنظمات المكلفة بالتجسس. إنهم يبنون أسلحة (حقيقية) للتدمير الشامل، من شأنها أن تفني جزءا مهما من النوع البشري. والكثير منهم أيضا، يقبل المال من مصادر عسكرية لاستكمال أبحاث مدنية دون الاكتراث بنتائج إضفاء المشروعية على ما هو عسكري (أو بنزع المشروعية عن العلم) التي تنتج عن هذا الأمر. في أكثر من موضع في العالم، يُدان العلم لأسباب دينية أو سياسية باعتباره «غربيا Occidentale». هذه الفكرة يمكن، حقا، نقدها بسهولة، وذلك من وجهة نظر نظرية. فالعلم، كما كل إثباتات الواقع، يكون صحيحا أو كاذبا، وليس غربيا أو لا، وهو أيضا يمارسه الكثير ممن ليسوا غربيين. من جهة أخرى، فأن يكون أناس لهم بممارسات مدانة أخلاقيا لا تستتبع على الإطلاق كون إثباتاتهم الواقعية خاطئة. ولكن يبقى مشكل الثقة قائما. إنه من باب العقل أخذ الحذر من أناس نعتبر الناس الذين نعتبر أن لا وازع لهم؛ ولأن الهيمنة الغربية على بقية العالم قائمة أساسا على التفوق العسكري، التفوق الذي بدوره قائم على التكنولوجيا، فمحاولة الحفاظ على التفوق (ولو كان بدون طائل) تساهم بشكل قوي على إظهار العلم كما لو أنه مشتبه فيه. لماذا لا يبالي الكثير من العلماء بعدم الثقة في العلم الذي ينجم عن التنسيق بينهم وبين العسكريين، وذلك خصوصا في العالم الثالث؟.

إنه لمن البديهي أن تكون الإجابة اللائقة عن هذه التساؤلات، هذا إذا افترضنا أن هذا ممكن، يتطلب الكثير من الوقت. ومع ذلك، فهذه التساؤلات تقترح شيئا على الأقل، وهو أنه لكي تكون الجماعة العلمية ذات مصداقية، وكذلك من يحيط بها ويمولها، فواجب عليها أن تتبع قواعد أخلاقية جد صارمة، والتي لا يتضح لنا كيف يمكن أن تُقبل أو تُفرض. وبالتالي، فهناك ما يدعو إلى الخوف من أن الشكانية تجاه العلم سوف تحيا كثيرا في مواجهته. أكثر من هذا، ولن يكون ذلك راجعا فقط، كما نحب أن نعتقد، إلى لاعقلانية الجماهير

دافيد هيوم (1711-1776) والمعجزات[6]*

لنفترض، كما يقول هيوم، أنكم، كما في حالة الكثير من الناس، لم ترون أبدا المعجزة بأنفسكم، ولكنكم، فقط سمعتم من تحدث لكم (كالعهد الجديد من الكتاب المقدس مثلا) عن وجود معجزات. فهل من باب العقل الاعتقاد بها؟ Est-il rationnel d'y croire يرد هيوم بلا؛ وذلك لأنكم تعرفون، عبر تجربتكم الشخصية،

6* هذه ترجمة للإطار المحال عليه في الصفحة 56 من المقال (encadré Voir)

أن هناك أناسا يختلقون أوهاما أو يبحثون عن طرق لخداع الآخرين. وبالعكس، فلا تجربة شخصية لكم بشأن المعجزة. وبالتالي، يكون من باب العقل جدا الاعتقاد في كون أمر سماعكم بحكاية حول معجزة يُفهم بافتراضنا أن أحدا ما قد أخطأ، أو قد خدعكم أكثر من افتراضنا أن معجزة ما قد حدثت في الواقع.

بالتأكيد، فهيوم لا يقول إنه لا يجب أن نعتقد سوى في ما نعرفه مباشرة، بقدر ما يطلب من مخاطبه ما إذا كان ما يقوله يتعارض مع مجموع تجاربنا الماضية، وما إذا كانت الأدلة التي يحملها بصدد ما يقدمه أكثر مصداقية من هذه التجارب ذاتها، وخصوصا التجربة شبه اليومية للذين يخطئون أو للذين يخدعوننا. لقد كان هيوم يظهر راضيا بحجته ما دام أنه كتب: «بأن يجب على الأقل أن نسكت التعصب والخرافة الأكثر تكبرا، وأن نخلص أنفسنا من إغراءاتها الوقحة»[7]**

إن هذه الحجة جد مهمة، ليس فقط فيما يتعلق بالمعجزات التقليدية، والتي لم يعد يؤمن بها اليوم سوى قلة من الناس، وذلك على الأقل في فرنسا، وإنما لأنها (الحجة) تقدم المثال الجيد على الكيفية العقلانية للقيام بانتخاب مختلف الآراء التي علينا مواجهتها. باستطاعتنا ومن الواجب علينا، أن نطرح نفس السؤال على صاحب المرآب الذي يبيع السيارات المستعملة، وعلى الإطار البنكي الذي يلمع الأرباح الخرافية، وعلى السياسي الذي يَعِد بالخروج من النفق بعد سنوات من التقشف، وعلى الصحافي الذي يولي أهمية لأحداث تقع في بلدان قصية، وكذلك على الفيزيائي وعلى الراهب والمحلل النفساني: ما هي حججكم لكي يكون من باب العقل أن نعتقد فيما تقولونه بدل أن نفترض أنكم مخطئون أو أنكم تخدعوننا؟ أكثر من هذا، فاللائحة الطويلة للأخطاء العلمية في الماضي تجعل تحدي الشكاني من الصعب رفعه. إن هذه النقطة تستحق أن يُشدد عليها، وذلك لأن الأخطاء العلمية غالبا ما يتم استحضارها كحجة غير مباشرة من طرف أتباع الأديان ومناصري أشباه العلوم، هذا في الوقت الذي تقدم فيه هذه الأخطاء، في الواقع، حججا لصالح الشكانية التي تتسع طبعا بالنسبة إلى المذاهب غير العلمية.

لنسجل، حقيقة، أن هيوم لا يقول إن هذه الطريقة في التعقل تسمح دائما بالوصول إلى نتائج صحيحة. فهو، في الواقع، يعطي المثال بالأمير الهندي الذي كان يرفض الاعتقاد في كون الماء يتجمد عندنا في فصل الشتاء، وكان يقبل (أي هيوم: المترجم) طريقته في التعقل: فأن يتجمد الماء إلى درجة الصفر، والأمير يعيش في مناخ حار، هو أمر لا يمنح له الحق في أن يفكر أن مثل هذه الظاهرة يمكن أن تحدث؛ وعليه، فقد كان من باب العقل بالنسبة إليه أن لا يصدق بلا دليل مخاطِبَه القادم من أوروبا. يضع هيوم قاعدة منهجية، حيث

7** Lucid, Hume ajoutait que cet argument «servira aussi longtemps que le monde durera. Car, je présume, c'est aussi longtemps qu'on trouvera des récits de miracles et de prodiges dans toute l'histoire, sacrée et profane.» David Hume, Enquête sur l'entendement humain, traduit par Philippe Baranger et Philippe Saltel, GF-Flammarion, Paris, 1983 (1748), 247p (p. 184).

ترجمة الإطار المحال عليه في الصفحة 56 من المقال (encadré Voir)

يكون من باب العقل إتباعها في جميع الظروف؛ ولكن أن تكون هذه القاعدة تقود إلى الحقيقة في حالة دقيقة، فهذا لا يمكن ضمانه قبليا، ويرتبط بدرجة المعرفة التي لدينا بخصوص هذه الحالة.

Références

- Susan, Haack, Evidence and Inquiry. Towards Reconstruction, in Epistemology. Blackwell, Oxford, 1993
- Susan, Haack, «Le bras long du sens commun: en guise de théorie de la méthode scientifique», Philosophiques, Volume 30, numéro 2, Automne, 2013
- Jean, Bricmont, «Comment peut- on être positiviste **?»**, sur le site www. Pseudo-sciences. Org.
- Alan, Sokal, Pseudosciences et postmodernisme. Adversaires ou compagnons de route?, Odile Jacob, Paris, 2005
- Analyse de la thèse de Mme Elizabeth Teissier intitulée «Situation épistémologique de l'astrologie à travers l'ambivalence fascination/rejet dans les sociétés postmodernes», 2001. Bernard Lahire, Philippe Cibois, Dominique Desjeux, Jean Audouze, Henri Broch, Jean-paul Krivine, Jean- Claude Pecker, Denis Savoie et Jacques Bouveresse. Sur le site www. Pseudo-sciences.org.
- Suzy, Collin- Zahn, «Les frères Bogdanov: science ou fable?», Science et pseudo-sciences, n°313, Juillet, 2015. Sur www.pseudo-sciences.org.

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : 54 99 77 537 212+

الفاكس : 27 88 77 537 212+

info@mominoun.com

www.mominoun.com

All rights reserved © 2017

جميع الحقوق محفوظة © 2017